

ذكريات أول وجداني الذهني

كنت في سنة ١٩٠٥ تلميذاً في السنة الأولى الثانوية قد تركت بلدي الزقازيق ورحلت إلى القاهرة ؛ إذ لم تكن في تلك السنين مدارس ثانوية إلا في القاهرة أو الاسكندرية . وكانت سني إذ ذاك نحو ١٥ أو ١٦ سنة ، فشرعت أقرأ الجرائد اليومية وأشتري المقتطف والجامعة وأسأل عن الكتب . ولم تكن هناك مجلات أسبوعية . وبقيت الحال كذلك إلى أن أنشأت أنا أول مجلة أسبوعية سنة ١٩١٤ وهي « المستقبل » .

وعرفت المقتطف . وكان اهتدائي إليه من المصادفات البديعة التي أعانني على التثقيف الذاتي . وكنت أشتري الأعداد القديمة بل أحياناً الأعداد الجديدة ، من الإدارة ، على غلاء ثمنها ، وألتهمها من الغلاف إلى الغلاف . وعند ما عدت إلى الزقازيق وجدت في بيت صديق لي بقرية قريبة من الزقازيق نحو مئة عدد من هذه المجلة ، فاقترضتها وقرأتها جميعها . وكان يحجر المقتطف في تلك السنين الدكتور يعقوب صروف . وكانت بؤرة اهتمامه الذهني في ذلك الوقت نظرية التطور التي كان يسميها نظرية النشوء والارتقاء . ولذلك لم يكن يخلو عدد من بحث هذه النظرية .

وفي مجتمعنا المصري كثير من الكظوم التي ترهق الذهن بالقيود والسدود . وكان الإيمان بنظرية التطور نوعاً من التفرج والانتقام . ولذلك وجدتني في ذلك الوقت داعية متحمساً لهذه النظرية في البيت والمدرسة وفي كل مكان آخر . وشعرت كأني ممتاز بهذه النظرية . فبعثني هذا إلى التوسع فيها ، وعرفت لذلك الدكتور شبلي شميل ، وكان رجلاً كبير الذكاء محدود المعارف . فكان يعتمد على الحجة المنطقية أكثر مما يعتمد على البيئة العلمية . وفي الوقت الذي كان يعتمد فيه المقتطف على البيانات العلمية وينقل أقوال البيولوجيين في أوروبا عن هذه النظرية كان شبلي شميل يدفع عنها ويدعو إليها بقوة المنطق . ولكن يجب مـ

ذكريات أول وجداني الذهني

هذا أن نذكر فضل شبلى شميل في أنه نقل إلى العربية كتاب بوختر في المادة العلمية . والحق أن هذه النظرية كانت رؤيا جديدة لشاب مثلى لم يكده يخرج من طور الصبا ، كما كان شبلى شميل بجرأته وذكائه شخصية فذة لها قوة الإيحاء والتوجيه في نفسى .

ولكن مع ذلك لم يستطع المقتطف ولا شبلى شميل تكوين مدرسة فكرية . لأن الركود الذهني كان عاما كما كان الشرق بقواته التاريخية الساحقة يخيم علينا بل يحيط علينا بكله . فلم يكن المجتمع المصرى وقتئذ يميز لنا أن نبوح ونعلن سراطنا . فكنا لذلك أفراداً متفرقين نناقش هذه الأفكار والآراء في همس مستترين أو في استحياء يشبه الاعتذار إذا صادفنا غرباء . وكثيراً ما كنت أجد أن الحجة تنتقل من الرأس إلى الذراع ، فأسارع إلى التسليم وأعلن صحة العقائد والتقاليد وكذب الآراء والعلوم . لأن المنكرين كانوا في المادة أكبر منى سنّاً وأضخم جسماً . . .

وإني أعزو إلى المقتطف هذه النزعة العلمية التي لازمتنى طيلة حياتى الماضية كما أعزو إليه هذا « الأسلوب التلغرافى » الذى أكتب به والذى يظن كثيرون أنه من اختراعى . وكان الدكتور يعقوب صروف لا يعرف التزاويق بل كان فى الأغلب لا يتذوق الجملة البليغة أو الكلمة الناصعة أو العبارة المتلاثلة أو سائر تلك الألاعيب الصبائية التي كان الكتاب يرفعون من شأنها إلى قبيل الحرب الكوكبية الأولى .

وكان يرافق هذا الوجدان العلمى بالنظر المادى وجدان أدبى آخر غمرنى وبسط لى آفاقاً جديدة . ذلك أننا فى تلك السنين أى حوالى سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ لم نكن نعرف من معنى الأدب سوى القواعد الجامدة للبيان والبلاغة التي نحفظها عن ظهر قلب فى جمود أو كراهة . ولكننا كنا نتذوق شيئاً من الجمال الفنى ومقالات اللواء ومصباح الشرق . وكنا نقرأ كتاب أدب الدنيا والدين للماوردى أو كتاب كلىة ودمنة لابن المقفع . والواقع أن أسلوب الأول يخالف أسلوب الثانى ؛ فإن الماوردى مسهب غير معلم أو محبوك فى حين أن ابن المقفع موجز رصين مضبوط . ولذلك كانت رؤيا جديدة بل إلهاماً جديداً أن أعرف مجلة « الجامعة » لفرح أنطون . فقد عثرت على بضعة عشر عدداً من هذه المجلة ، ثم اقتنيت مؤلفات هذا الكاتب العظيم ، فرأيت دنيا جديدة من الأدب

الأوربي لم نكن نعرف عنها شيئاً من قبل . وقد مس هذا الادب أوتاراً في نفوس جميع قارئيه في الشرق العربي . لأن هذه الدنيا الجديدة من الادب الأوربي كانت تختلف ، لا بل تناقض ، ما تعلمنا من أدب عربي . ذلك لأن الادب العربي ، كما نعرفه في ذلك الوقت ، كان أدب السلطة والتقاليد والعقائد . ولكن الادب الأوربي ، أو بالأصح الفرنسي ، الذي نقله إلينا فرح أنطون ، كان أدب الثورة والتمرد ، أدب العقل الذي يحس والقلب الذي يعقل . أدب فولتير وروسو وديدرو وبرناردين سان بيير . وكان جميع هؤلاء مجاهدين يكافحون استبداد الملوك والأمراء واستبداد العقيدة وسلطان التاريخ .

وكنا نحن في مصر في حالة اجتماعية وسياسية تحملنا على الترحيب بهذا الادب ، ففتحنا له قلوبنا ، لا بل تفززنا وتمردنا . وكان هذا الادب هو الذي هيا فرنسا ، التهيئة الذهنية للثورة الكبرى . ويبدو لي الآن أن فرح أنطون لم يكن على جهل بما يعمل . فإنه خرج من لبنان حوالي سنة ١٩٠٠ وكان هذا القطر يغط في ركود تاريخي آسن وقد خيمت عليه الدولة « العثمانية » ومنعت عنه النور إلا بصيصاً يتلقاه الشباب في كلية بيروت الفرنسية أو الجامعة الأمريكية . ودرس فرح أنطون الفرنسية وتشبعت نفسه وذهنه بأدائها . فلما رحل إلى مصر وجد شيئاً من الحرية . ولكنه أدرك أن الظلام الذي يشكوه لبنان هو نفسه الظلام الذي تشكوه مصر مع فرق في الدرجة فقط . فعمد إلى هؤلاء المؤلفين الفرنسيين الذين ذكرت أسماءهم ينقل عنهم أو يستلهمهم في كل ما يكتب . ومن هنا جدته وطرافته لي بل لجميع قرائه . فإن المقتطف لم يكن يعني بالادب . وكان « مصباح الشرق » جريدة أدبية يصدرها المويلحي ، ولكن لأدب العرب فقط . أما الجامعة فانفجرت بيننا تنير وتشير . أي تنير عقولنا وتشير إلى مبادئ ومناهج رتبها أدباء فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر ، وكان يحس أننا في حاجة إلى هذه المبادئ والمناهج . ولذلك زادنا بترجمة قصة الثورة الفرنسية لألكسندر دوماس . ولا أعرف واحداً يقظاً في تلك السنين لم يقرأ هذه القصة ولم يتغير بها وبسائر مؤلفات فرح أنطون .

وكان جديراً بهذه المؤلفات أن تحدث حركة رومانتيية في الادب العربي ، ولكنها للأسف لم تحدث . فإن خلاصتها أن الإنسان حسن مسالم ، ولكن المجتمع سيئ يحمل على الرذائل . وما أبدعها من فكرة لأنه مثل أمتنا في مثل

عصرنا سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ . فإن هذه الفكرة كانت جديدة بأن تختصر وتبعث النشاط الذهني في جميع القراء ، كما تبعث وجداناً أدبياً جديداً ينضج ويتوالد في شتى الأفكار والآراء .

ولعل محتاج هنا إلى أن أشرح ماذا أقصد إليه من الاتجاه الرومانتي في الأدب . فإن الأدب يمكن أن يقسم من ناحية المزاج والاتجاه وقواعد التفكير واللغة بأنه أدب سلفي أو أدب رومانتى . وليس أحدهما خيراً من الآخر ، ولكنهما مختلفان . وفي فترة ما تحتاج الأمة إلى النزعة السلفية في حين أنها في فترة أخرى قد تحتاج إلى النزعة الرومانتية .

فالنزعة السلفية تقتضى العناية بالماضى والجري على أساليب السلف في قواعد التفكير واللغة . فقولتير سلفى . وطه حسين في كتابه عن المعرى سلفى . والعقاد في كتبه عن رجال الإسلام الأولين سلفى . وقس على هذا .

والنزعة الرومانتية تقتضى الخيال أكثر من التقيد بالنصوص . وهى تمجح إلى الابتداع بمدلا من النص والقاعدة . ولذلك كان روسو رومانتيًا ، كما أن طه حسين في « الأيام » رومانتى . وكذلك توفيق الحكيم رومانتى في معظم ما يكتب . ونحن محتاجون إلى النزعتين ، ولكننا في مصر أكثر احتياجاً إلى النزعة الرومانتية . وإنها هى في النهاية نزعة التجديد وإقتحام المستقبل .

وكان فرح أنطون فيما ألف ونقل رومانتيًا . بل إن أول الكتب التى نقلها عن الفرنسية كان كتاب « إميل » لجان جاك روسو ، وهو يعد أساساً للحركة الرومانتية في أوروبا ، ويقول بأن الطبيعة البشرية حسنة يفسدها المجتمع والحكومات والقوانين . وهذا الكتاب مع الأسف لم يطبع إلى الآن .

ولكن حياة فرح أنطون في ذلك الوقت بترت ؛ لأنه وقع في مناقشات تمس الدين مع الشيخ محمد عبده ، فبارت مجلته بعد الزواج . ورحل إلى القارة الأمريكية حيث اشتبك في خصومات صحفية لم يكن القلم وحده أداة الرأى والحجة فيها ، فعاد مهزوماً إلى مصر .

وكان أثر فرح أنطون في نفسى أنى أ كبرت الأدب الأوربى إكباراً عظيماً . ولم يكن هذا غريباً في مثلى . فإن فرح أنطون استبدل بالماوردي عندى جان جاك روسو ، وحملى على أن أستبدل بالكلمة الوضيئة والعبارة المذهبة أدب المبادئ والفلسفة والفكرة .

ذكرات أول وجداني الذهني

وعرفت فرح أنطون بعد ذلك حين اشتغلت معه في جريدة اللواء ، وكانت جريدة الحزب الوطني رأسها المرحوم عثمان صبرى حوالى سنة ١٩١٠ ، فزادني توجيهاً نحو الأدب الأوربي . وعاش فرح في مصر إلى سنة ١٩٢١ حين توفي وهو في الحادية والأربعين . وكانت وفاته نكبة على النهضة المصرية السياسية والأدبية . وكان من السوريين القلائل الذين اندغموا في الحركة الوطنية المصرية اندغاماً تاماً . وكان سعد زغلول يحبه ويقدره . وزاره واصف غالى باشا وهو في فراش المرض قبيل وفاته بمثل أخته السيدة روزا حداد وقدم له تحية الوفد . والآن أعود بالذاكرة إلى هذه الشخصية الفذة وأتساءل : ما مقدار ما ضاع منا بوفاته ؟

الحق أن ما فقدناه فيه عظيم فادح . فلو أنه عاش إلى أيامنا مثلاً لطبع التزعات الأدبية والسياسية في مصر بطابعه . ولعله كان يوجه الأدب المصرى هذه الوجهة الرومانتية التي آسف على أنه لا يتجهها الآن . لأننا على الرغم من كل جديد في هذا الأدب مازلنا نعيش في أسر التاريخ بأدب أغلبه سلقى ، تفكر بمزاج سلقى في لهجة سلفية . وأدبنا هو أبعد الآداب عن روسو ، بل لقد أصبحت حركاتنا الاجتماعية سلفية أيضاً .

وكان فرح أنطون بشرى الزعة والإيمان ، يؤمن بالإنسان ويكره الأساطير الغيبية بل يشتمز منها . وكان يمتاز بالذهن الاستطلاعي يرود كل جديد في الثقافة الأوربية . فهو أول من كتب عن نيتشه . وأظن أنى أنا كنت الثانى ؛ لأن أول مقال صحفى لى كان في المقتطف سنة ١٩٠٩ بعنوان « نيتشه وابن الإنسان » وقد وصلت إلى نيتشه مستقلاً وأنا بأوروبا .

ولذلك عقب عودتى من أوروبا واتصالى به كنت لأجد موضوعاً أختلف فيه معه . وكنا نتحدث عن الاشتراكية والتزعات الأدبية الجديدة والسياسية في مصر ، فنكاد نتفق في كل شيء حتى في العقيدة الدينية .



وفيما بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٠ ظهرت قوة جديدة في مصر لها أثر آخر في توجيهى النفسى ، وكانت هذه القوة أحمد لطفى السيد . ففي تلك السنين كانت الوطنية المصرية في طور البرقة لم تنسلخ بعد إلى الجسم الحى الكامل . وكانت

عرضة لأخطار شتى وتطوحات مختلفة . وحسب القارئ أن يعرف أن كلمة « وطنية » ليست عربية ، وأنا سككنا هذه الكلمة كي نعبّر عن وجدان جديد . ذلك أن مصر في بداية هذا القرن كانت لا تزال في أسر الماضي وكانت الدولة « العثمانية » هي دولتنا التي كنا نكافح بها الإمبراطورية البريطانية . وكان بيننا متنبهون تعلموا في المدارس الفرنسية أو نبهتهم الحوادث وأيقظت فيهم وجداناً وطنياً ، فلم يكونوا يسيغون منطق اللواء والمؤيد في الدفاع عن استقلال مصر بحق الأتراك في سيادتها . وكان الأقباط ينفرون من هذه الوطنية العثمانية نفوراً عظيماً . وظهر لطفي السيد في الجرائد يدافع عن هذه البديهيّة الواضحة ، وهي أن مصر يجب أن يملكها المصريون دون الأتراك ودون الإنجليز . ووجد في الأول مصادمة قوية من الكتاب الذين ألفوا الدعاية للأتراك . ولكن سرعان ما انتصر وظفر بالرأي العام في مصر . ووجد الأقباط منطقاً في هذه الوطنية كما وجد المثقفون فيها أملاً جديداً يعي الأمة للإصلاح والتجديد فأقبلوا على الجريدة وشغفوا بمقالات لطفي السيد .

وكثير من القراء في أيامنا ، أي بعد نحو ٣٥ سنة من هذه الحركة ، لا يعرف مقدار هذه الحركة وفضل أحمد لطفي السيد فيها . ذلك أننا جميعاً قد اعتنقنا هذه الوطنية الجديدة ، وطنية مصر للمصريين ولم نعد نعرف غيرها . ولكن على القارئ أن يذكر أن الدولة « العثمانية » كانت شيئاً أكبر من تركيا الحاضرة . وكانت إمبراطورية شاسعة لها جيوش وموظفون في اليمن والحجاز والعراق وطرابلس . وكانت الرحلة السنوية إلى استامبول أو كما كان يسميها الصحفيون وقتئذ « دار السعادة » لا تقل في عدد المسافرين المتترهين عن الرحلة إلى باريس . وكان جبل الدسائس لا ينقطع بين القاهرة واستامبول . ولكنه مع ذلك كان واهياً ، كما كانت هذه الدسائس عقيمة .

وكان لطفي السيد وعبد العزيز فهمي وقاسم أمين جيلاً جديداً في مصر بعد الجيل الذي كان منه الأفغانى ومحمد عبده . وكان هذا الجيل أكثر جرأة . ولذلك نجد أن قاسم أمين يدعو إلى سفور المرأة وإلغاء الإعراب في اللغة . ولطفي السيد يدعو إلى العامية . كما نجد عبد العزيز فهمي يدعو إلى الخط اللاتيني . وقد حفظ هذا الأخير شبابه الذهني إلى ما بعد السبعين . وهو يمانى الآن من هذا الشباب سنّاً من خصومه أولئك الشبان الذين شاخوا قبل الأوان .

والواقع أن لطفي السيد مهد لحركة سنة ١٩١٩ بجمع الأمة على رأي موحد في الوطنية، كما أنه جعل التجديد مساعاً لا يتهم القائمون به بالهوج أو الرعونة . بل أصبحت الدعوة إلى حرية المرأة وتعليمها شيئاً وقوراً محترماً ، واحترمت « الجريدة » بعد أن كانت موضوعة النكبات البذيئة .

وقد سبق أن قلت إن أسلوب المقتطف كان علمياً مقتصداً وإني أخذت عنه ما أسميته « الأسلوب التلغرافي » . ولكن أسلوب لطفي السيد كان موجزاً مقتصداً أيضاً . وهو أشبه الأساليب بأسلوب ابن المقفع . وأظن أني تأثرت به أيضاً .

وقد كان هؤلاء الثلاثة : يعقوب صروف ، وفرح أنطون ، ولطفي السيد ، من القوات التي صاغت شخصيتي الثقافية الذهنية . فإن الأول وجهني إلى طريق العلم . والثاني بسط لي الآفاق الأوربية للأدب . والثالث جعل من المستطاع لي ، بوصف أني غير مسلم ، أن أكون وطنياً في مصر .

سلامة موسى